دينا عبد الحميد

إقبال

الفيلسوف الشاعر

مايو ١٩٥٩

زينا عبد الحميد

إقبال

الفيلسوف الشاعر

محاضرة عن إقبال

ألقتها بجامعة القاهرة في يوم ذكراه

الشريفة دينا عبد الحميد



الشريفة دينا عبد الحميد

الشريفة دينا عبد الحميد

ولدت فى ٢٨ أغسطس سنة ١٩٢٨ بالإسكندرية .

- أبوها الشريف عبد الحميد بن عبد العزيز بن عون الرفيق أمير مكة المكرمة من سنة ١٢٩٩ هـ حتى سنة ١٣٢٤ هـ .
- تعلمت بمدرسة (سانت كلير) وحازت (المتركيوليشن) ثم التحقت بجامعة (كامبردج) بانجلترا وتحصلت على شهادة (الماجيستير) فى الأدب الانجليزى ، فكانت أول حجازية سلكت سبيل العلم والعرفان وضربت بسهم وافر فيهما .
- ذهبت إلى الحجاز مع أبيها وعمها الشريف حسن فى سنة ١٣٥٢ هـ وعادت إلى مصر فى نفس العام .
- التحقت بجامعة القاهرة مدرسة للأدب الانجليزى وتركت أثرا مشرفا فى تلامذتها وزملائها تحدثت عنه الصحف والمجلات فى ذلك الحين .
- اعتلت عرش الأردن وأسهمت فى نهضة المرأة الأردنية بقدر ما سمحت به الظروف
- فلسفتها فى الحكم أن الشعب فوق العرش .
- تركت عرش الأردن لتجلس على عرش أثبت ... عرش القلوب
- جمعت بين الثقافة العالية والخلق الممتاز ، والشخصية القوية ، لذلك كانت إحدى المنارات الكبرى للمرأة فى عصر القومية العربية
- دلت محاضرتها عن إقبال على إطلاع واسع ، وذوق رفيع ، وإنسانية أرفع .
- تتذوق الأدب وتنقده فهي أديبة وناقدة .
- تجيد الانجليزية ، والفرنسية ، والتركية ، إلى جانب اللغة العربية .
- جعلت من البساطة فنا عظيما للأناقة .
- الحضارة فى نظرها مزيج من علم الغرب ، وروحانية الشرق .
- متمسكة بتقاليد الحجاز وعادات أهله ومعتزة بذلك .

ابراهيم هاشم فلالى

بسم الله الرحمن الرحيم

يشرفني أن أقف اليوم في هذا الحفل في رحاب جامعة القاهرة وبين هذا الجمع الكريم بمناسبة الاحتفال بذكرى شاعر الإسلام الكبير محمد إقبال ، وأن تتاح لي الفرصة لتحية ذكراه الطيبة . وإني لا أشك في أنني أعبر عن مشاعر الجميع عندما أحيي أيضاً بهذه المناسبة ذكرى المغفور له الأستاذ الجليل الدكتور عبد الوهاب عزام الذي كان له الفضل الأكبر في تعريف العالم العربي بشعر إقبال وفلسفته مسهما بذلك في الخدمة الجليلة للربط بين آراء العالم الإسلامي . والحديث في هذه المناسبة هو أكثر من احتفال بذكرى، إذ هو إحياء واستلهام لآراء الشاعر الذي أصبح صوته اليوم يدوي عبر الموت وعبر الزمن منادياً بالإصلاح والتجديد والتقدم . ذلك النداء الذي عم شعره وفلسفته . تلك الفلسفة التي كونها ونادى بها لحث الأمة الإسلامية على الحياة والعمل واليقظة من السبات الذي تردى فيه بعض أجزاء العالم الإسلامي لأسباب تاريخية شتى .

لقد سمّي إقبال بالشاعر الفيلسوف ، فالشعر والفلسفة عنده مرآتان لنفس واحدة ، لا نستطيع أن نفصل بينهما . وربما كان

اهتمامنا بإقبال الفيلسوف يفوق تقديرنا لإقبال الشاعر . فذلك لأن ما يعنينا فى هذا العصر وفى هـذه الحقبة فى تاريخنا هى المبادىء الفلسفية التى أراد بها إقبال أن يقود الشباب الشرقى إلى المقدمة . ألا وهى فلسفة الإيمان بالذات فلسفة العمل والقوة غير أن عظمة إقبال الشعرية قد اعترف بها كل من استطاع أن يقرأ دواوينه فى أصلها الفارسى والأوردى . وشهد له بالتفوق الأدبى لفظاً ومعنى وأسلوباً وجوهراً .

فإن أبياته حتى فى ترجمتها العربية والإنكليزية تقر بشاعرية قوية وخيال خصب جبار .

فحيناً تنساب فى سلاسة وعذوبة وحيناً تعلو وترعد وكأنها أصوات الأمواج التى يتكرر تصويره لها فى شعره والتى يستعملها رمزاً لما يصادف المرء فى الحياة من عقبات وامتحان .

وإن كتابات إقبال قد صادفت منذ فجرها الأول صدى كبيراً فى نفوس قرائه وأذهانهم فانقسم المفـكرون بشأنها إلى مقر معتنق لفلسفته مادح لشعره ، وإلى معترض على ما جاءت فيه من نظريات ثورية تطورية . فإنه قد تـكونت نتيجة لـكل ذلك مكتبة ضخمة تناولت جميع أنحاء تفـكيره بالبحث والنقد وخاصة فى القـارة الهندية حيث لا زالت أصداء شعره تلهب حماسة الشباب التواق إلى التقدم والتفوق والإصلاح بحيث إننى حينما أقف اليوم بينكم

لأضيف كلمة تحية وتبجيل متواضعة ، لا أطمع فى أن أسهم بجديد فى هذا الخضم الكبير فى الآراء والأفكار وإن كنت أرجو أن أبدى بعض انطباعاتى الشخصية عن الشاعر العظيم .

تعرفت إلى شعر إقبال أول ما تعرفت بين طيات مجموعة من مقتطفات شعره حينما كنت طالبة فى الجامعة شغوفة بالشعر عطشى إلى كل جديد فى عالم الفكر الإسلامى والعربى . فاستهوتنى حينذاك الصبغة الغنائية فى شعره ودقة الوصف وجمال الصور التى ينتقيها الشاعر تارة فى أحداث الحياة اليومية البسيطه وتارة ترتقى بنا إلى معان كونية أزلية . فهو يصور اليم المتلاطم الأمواج ويجعله رمزاً للحياة وكفاحها ، فيقول فى أحد أبياته مخاطبا الإنسان : لا تلهون على الشاطىء الساكن الهادىء إنما تقدم وصارع الموج وكافح فالخلود فى الكفاح . ويستعمل صور النجوم والأفلاك السابحة التى تتوالى عليها الأيام والليالى وهى فى دورة من الفناء والبعث المستمر . وهذه صورة لاشك أنها توحى إلى أذهاننا بأقدم الأساطير العالمية .

وقد شعرت حينذاك فى تلك الفترة البعيدة بأن الفلسفة وعمق الفكر الكامنين فى أبياته لا ينقصان شيئاً من رقة ذلك الشعر ولا فى شاعريته بل أمدّاه بطاقة مجنحة : وهذا هو ما ثبت لدىّ عند قراءتى لإقبال هذا العام للمرة الثانية . فبالرغم من أن شعره ينقسم فى صورته العامة إلى قصصى وتعليمى وغنائى الا أننا نجد أن هناك

طابعاً خاصاً تأثر به الشاعر اتسمت به كل تلك الضروب فى شعره . وهو طابع الشعر الفارسى بما فيه من لغة مجازية ووصف للطبيعة وصبغة وجدانية صوفية . فهناك صورة « الساقى » العتيدة ؛ ذلك الساقى الذى يدعوه الشاعر ليملأ له كأسه علماً وعشقاً ، وصور الرياض الغنـــاء المليئة بالورود والرياحين تطالعنا وكأنها من صفحات إحدى اللوحات الإيرانية الدقيقة . وهناك صورة أخرى تتكرر فى شعر إقبال وهى صورة الفراشة التى يبهرها نور المصباح فتجعل فى حياتها القصيرة تحلقاً مستمراً حوله وإن اكتوت أو احترقت بناره . والفراشة فى هذه الصورة هى الروح البشرية التواقة إلى النور والمعرفة .

وإننى عندما أقبلت على هذا الكنز من كنوز الأدب الشرقى للمرة الثانية كانت هناك فى نفسى أصداء قوية للانطباعات الأولى عنه . ولكننى اكتشفت فيه هذه المرة وفيما قرأت من نثر إقبال قوى كامنة جديدة وتبلور فلسفة مستقلة ذات شأن وذات مستقبل فى عالم الفكر وعالم الواقع فى البلاد الشرقية . إن فلسفة إقبال باعتراف كبار المستشرقين أنفسهم قد أسهمت فى تيار الفلسفة العالمية بكثير من الآراء القيمة . وأهم هذه الآراء رأيه فى الذاتية حيث قضى به على الانشقاق والازدواج اللذين كانا يوجدان فى الأذهان والمبادىء الفلسفية وخاصة الإسلامية منها بين الروح والجسد .

أو بين الروحانيات والماديات . ذلك الانشقاق الذى تعدى المناقشات فى المجالس والندوات الفكرية إلى صميم الحياة الإسلامية وفرّق القوم إلى شيع ، منهم من انساق وراء بريق المادة وانهمك فى دورة الحياة الرتيبة ، ومنهم من عاف الدنيا وزهدها . وقد أعطانا إقبال فى شعره ونثره وخاصة فى محاضراته المسماة « احياء المعانى الدينية فى الإسلام » والتى تناول فيها حاضر المجتمع الإسلامى فى ضوء التاريخ والفلسفة الإسلامية القديمة وأعطانا نموذجاً جديداً للإنسان الذى يستثمر إلى أبعد الحدود وأقصاها ما وهبه الله من قوى وإمكانيات وينميها إلى أن يرتقى بها إلى أعلى ما قدر له من ارتقاء .

وهذه الذاتية قد اعتبرها اقبال محور الكون وبشر بأن الإنسان سوف يصل خلال تنميته لها إلى ما يسميه « النيابة الإلهية » على الأرض ؛ حيث لا يتصف البشر بصفات الإله (وأهمها الخلق والابتكار) فحسب ، بل يتعاون مع الإله على تطوير الكون نفسه — فالتطور فى رأيه حركة لا نهائية لا يحدها العمر ولا الزمن — ويقول فى قصيدته « أجنحة جبريل » : —

« إن يد المؤمن هى يد الله ؛ يد قوية جبارة خلاقة .. خلقت من طين واستحالت إلى نور ، فهى مخلوق له صفات الخالق »

وفى نفس القصيدة قال أيضا : « قو ذاتك وكملها بحيث تجعل الإله يستشيرك فى تقرير مصيرك »

ويخاطب الإله قائلا :

خلقتَ الظلام فصغت السراج　　وطيناً خلقتَ فصغت الكئوسا
خلقتَ جبالا وبيداً وروضاً　　خلقت حدائقها والغروسا

وهذان البيتان الأخيران من ترجمة الدكتور عزام .

ولكن ليس هذا مجرد تمرد أو غرور . إذ أن إقبال مسلم بما فى هذه الكلمة من معنى التسليم المطلق . وخلافه مع الصوفية ليس فى مبدأ الخضوع لإرادة الله ولكن حول نظريتهم فى الفناء . فما أجمل أبياته التى يقول فيها :

« أحكم ذاتك فى حضرته　　ولا تفن فى بحر نوره »

والتى يتجلى فيها قوة المؤمن واعتزازه بشخصيته إلى جانب إيمانه وخشوعه . وإقبال يؤمن بأن للقلب قوة خارقة فى اكتشاف الحقائق الكونية ، فالذات مسلحة بسلاحين هما العقل والقلب ، أولهما يفقه الأمور فى تفاصيلها عن طريق « العلم » . والثانى يدرك حقائقها الإجمالية عن طريق « العشق » . وأولهما يلقى النور على ظواهر الأمور وثانيهما يصل إلى النور حتى بواطن الأمور كما يصل إلى إدراك الحقائق الأزليه وإثباتها . وأهم هذه الحقائق وجود الله سبحانه وتعالى — الذى لا يمكن أن نبنى معرفتنا له عز وجل

على البراهين والعوامل العلمية أو الحسية البحتة . وهاتان القوتان ليستا بمتضاربتين بل تكمل إحداهما الأخرى . ويقول إقبال : إن العقل البشرى أو الإيمان البشرى يتضمن فى ذاته حقيقة معرفة الله كما تنطوى النواة على حقيقة الشجرة وأصلها .

وكما حرر إقبال النفس البشرية من المقاييس العلمية والحسية ووضع لها مقياساً أكثر شمولا ، حرر فكرة « الزمن » من حدودها وأضفى على الزمن فلسفة تملأ المرء أملا ورغبة فى الإقدام . وتمر آفاقه وآفاق إمكانياته حتى اللانهاية . وهذان بيتان من ترجمة الدكتور عزام تجسد فكرته عن الزمن :

نسج المرء عليه كفنا   فى صباح ومسا

وترى الحر على الترب علا   ناسجا همته فوق الملا

فإن حياة البشر لم تعد مكبلة باعتبارات الأمس واليوم . بل أصبحت تمتد أمامنا كغد مشرق .

ورغم ذلك فإن من أقوى ما لمسته فى كتابات إقبال إدراكه للتسلسل التاريخى فى حياة الأمم ذلك الإدراك الذى يهمله كثير من الكتاب المجردين والذى — ليس فى اعتقادى — لأى مجتمع راق قوى غناء عنه وعن عبره . ويتجلى ذلك فى احترام إقبال للماضى وللتاريخ حيث ظل يستلهمهما فى تكوين نظريته عن المجتمع والفرد الصالحين .

وعلى الرغم من أن إقبال أدرك قيمة عنصر القوة فى عالمنا إلا أنه كان من أكثر الناس إحساساً بقيمة الخلق والمعانى الإنسانية . فما أكثر ما ذكر من أمثلة لها مستمدة من التاريخ الإسلامى .

ومع أننا نرى كثيراً من الناس يطلقون لفظ « بشر » للاعتذار عن نقص النوع البشرى وأخطائه — نرى فريقاً آخر يتمردون فيرفعون من شأن البشر إلى مرتبة الآلهة . وفى كلتا الحالتين إفراط. والضرورى هو أن نعطى هذه الكلمة القدر الذى تستحقه بحيث تتضمن معانى الخير المقرونة بمعانى القوة والاعتداد بالنفس بدون خنوع أو تمرد .

وكما أننا نجد لأهم الموضوعات الإنسانية مكاناً فى شعر إقبال كذلك نجده يختص المرأة بكثير من أبياته ويرفعها إلى المرتبة الرفيعة التى وضعها فيها الإسلام . وإننى اليوم كامرأة أشعر بتقدير مزدوج نحو إقبال مكرم الإنسانية ومبجل المرأة والأم حيث يصفها بالفضائل الأساسية التى تكون فلسفته . ومنها تقوية النفس وغيرها من القيم المعنوية . فنجده يخاطبها قائلا :

يا فطرة نزاعة إلى العـــلاء

لا تغمضى عينك عن سيرة الزهراء

فالمرأة هى كما يقول عنهـا « أمينة على الشرع المبين » . وربما لا نجد من إقبال حثاً للمرأة على العمل ولكننى لا أشك فى أنه

لو مد الله فى عمره وعاصر هذه الفترة فى تاريخنا الحديث لأدرك أن المرأة جزء فى المجتمع العامل . فالمرأة فى نظر إقبال هى الحافظة للتوازن فى المجتمع وهى الأمينة على آمال الأمة وأحلامها والحاثة على أعمالها العظيمة .

وكما يحث إقبال ويوصى بالعمل على أن تكون الحياة جهاداً كذلك نجد حياته جهادا فى سبيل الاستقرار النفسى والمذهبى . ومع أنه نفى عن نفسه الاتصاف بضعف المتصوفة فى كثير من شعره فإن الصبغة التأملية الصوفية التى ورثها عن أجداده البراهمة والتى نشأ عليها تتراءى فى تفكيره وكتاباته . وربما كان الأصح ألا نعتبره معادياً للصوفية بل مغيراً لها ، قلبها من الأفكار الإيرانية الدخيلة المتأثرة إلى حد بعيد بالنظريات الأفلاطونية التى امتزجت بالفكر العربى . وعاد بها إلى معانى الزهد الأصيل التى بشر بها الإسلام . فاختلافه الأكبر مع أئمة الصوفية يتركز فى مذهب الفنـاء فى الذات الإلهية . وهى ذروة التجربة الصوفية ، والفرق بينه وبينهم أن تفسيره للنفس البشرية المثالية هى أنها النفس « العاملة » بينما يدركها الإمام الغزالى رائد الصوفية الأول مثلا على أنها « النفس المطمئنة » .

فقد كان مثل إقبال الأعلى هو الإنسان الذى يجمع فى نفسه صفات الرسول « المبشر » بعموم ما يدل عليه هذا التعبير ، لاصفات الصوفى الزاهد . وقد حاول الشاعر أن يحقق هذا المثل فى حياته

فتناول قلمه واعتلى المنبر الجامعى والسياسى مبشراً بما كان يعتقد أن فيه بعثاً جديداً للإسلام خاصة ورفعة للمجتمع الشرقى عامة . وقد حقق بسيرته هذه ركناً أساسياً من أركان الإسلام . وهو نشر كلمة الحق .

والمجتمع المثالى فى نظر إقبال هو مجتمع صدر الإسلام حيث وجدت العدالة التامة والتنزه عن التفرقة العنصرية والطبقية . ذلك المجتمع الذى يصفه إقبال بأنه جاء تلبية طبيعية لاحتياجات التاريخ فى ذلك الزمن . إذ كانت البشرية فى حاجة إلى نظام جديد عادل ، بعد أن بدأت النظم القائمة تتردى وتنحل . وهذه العودة إلى عصر صدر الإسلام ليست فى رأيى بحنين رجعى خيالى إلى عهد قد اندثر . إنما هى إحياء لتراثنا الروحى الذى خرج فى قلب الصحراء ليعم الكرة الأرضية بالنور . وهذه العبرة التاريخية وهذا التفسير للإسلام فى ضوء المدنية الحديثة كان يعتقد إقبال أنه سوف يكون قوة دافعة هادفة إلى بناء مجتمع جديد صالح .

ومن أجمل ما أجده عندما أتأمل شعر إقبال تلك الأصداء التى تتجاوب مع ما فى نفسى وتجعل له فيها مكانة خاصة . ألا وهى حنين إلى الحجاز موطن الهدى والعزة الذى يغنى به شعره وأذكر منها أبياته التى نشرها وهو على فراش الموت . إذ يقول : —

نغمات مضين لى هل تعود ؟ أنسيم من الحجاز يعود ؟
آذنت عيشتى بوشك رحيل هل لعلم الأسرار قلب جديد ؟

كما أنه سمى ديوانه الأخير الذى صدر بعد وفاته « أرمغات حجاز » أى « هدية الحجاز » . فقد أدرك أن الحجاز — مهد الإسلام ووطن الرسول — قبلة روحية وتاريخية لها فى ماضى التاريخ العربى وحاضره أرفع منزلة . فما أجدر بنا اليوم أن نبقى لها مكاناً حياً فى قلوبنا وأذهاننا وواقعنا .

ولإقبال فى أهل بيت الرسول أسوة وقدوة ومفخرة . ففاطمة الزهراء هى مثال المرأة المسلمة الكاملة ، وابنها الحسين قد ضحى بدمه فى كربلاء دفاعاً عن الحق . وفيه لنا مثال للزهد المكافح . فالزهد أو الفقر كما يعرفه ويصفه إقبال من مستلزمات الذات المكتملة فهو يعدد فى قصيدته « أجنحة جبريل » أنواع الفقر أو الزهد الزائف إلى أن يقول : —

« ولنا فى فقر الحسين أسوة وتراث » .

ثم يستشهد فى نفس القصيدة بحياة على بن أبى طالب رضى الله عنه وسيرته حيث يقول : إن الفقير الذى يقتدى فى فقره بعلى لأعظم شأناً من دارا والإسكندر . وفى أبيات أخرى يستنجد بالرسول عليه الصلاة والسلام لينجيه من وساوس الفلسفة ومن أصنام المدنية المادية الحديثة .

وكم يزخر شعر إقبال بأصداء أخرى تكمن فى نفسى وفى نفس كل عربى .

وتتجلى فى محبة إقبال للعرب ولكل ما يتصل بحضارتهم ويشع فى تراثهم . وهو يجعل لكلمة عربى مفهوماً خاصاً شاملا . إذ يقول : —

« ما من حدود وأرض كان منشؤها

من أحمد العُرب كانت أمة العرب

ولم يهتم إقبال فقط بماضينا فى شعره بل امتد اهتمامه كذلك إلى الأحداث التى عاصرها والتى كانت تجرى على المسرح السياسى العربى فى أوائل هذا القرن . فهناك أبياته المعروفة « إلى أهل مصر » وهناك نداؤه إلى أبناء سوريا الذين يرثى لهم فى ما عانوه من الاستعمار التركى وما سوف يضللهم به الاستعمار الأجنبى — وقد حل محل الاستعمار التركى — فى مظاهر المدنية المادية الزائفة .

وكارثة فلسطين التى مزقت الوطن العربى فرقاً وكانت أساساً لجميع مشاكلنا الحالية كما كانت فى نفس الوقت — وإن بهظ الثمن — خير حافز لنا على التكتل والتعاون — قد وجدت فى إقبال نصيراً لها وتركت أبياته بشأنها أعمق الأثر فى نفس كل عربى مناسته تلك النكبة الكبرى . وهذه أبياته التى سماها « إلى عربى فلسطينى » : —

تحرق تلك الجذوة التى تلهب صدرك وتعم أركان الأرض . فالقبضة الصهيونية قد تعلقت بخناق العرب . ولكن الأمم العظيمة هى التى تقاوم الذل بالقوة والإيمان .

وهكذا نجد غيرة هذا المفكر الكبير على قضايانا ونرى أن له فلسفة تستلهم روحها من عالمنا العربى ومن تراثنا ؛ فلسفة أهم ما فيها أنها تربط الماضى بالحاضر وتصل الجذور بالفروع الممتدة إلى العلا . ونحن إذ نؤمن مع إقبال بأن المجتمع الصالح يعتمد على أفراد أقوياء اعتمدوا على ذاتهم وقووها بالعمل وهذبوها بالإيمان يبدو لنا على الفور أن أهم موضوع يحق لنا التفكير فيه اليوم ، هو موضوع التربية ؛ ذلك الموضوع الذى وجد فى جامعة القاهرة الغراء خير حرم يشاد بذكره فيه — وفى سيادةوزير التربية — وهذه النخبة من رجال الفكر العربى وكرام السادة فى الدول الإسلامية وأمل المستقبل من الطلبة — خير مستمعين .

يرى إقبال أن شباب القارة الهندية والشرق عامة يدورون فى أفق محدود ، ويحصرون أنفسهم وشخصياتهم بين غلافى كتاب أصم . أو يسعون وراء العلوم الأجنبية غافلين عما فى بلادهم من قيم روحية . مصابين بغرور الجاهل ، ضعيفى الإرادة والشخصية . وهذه آفة لا شك أنها قد عولجت إلى حد كبير فى نظمنا التعليمية الشرقية الحديثة .

هذا ما يراه إقبال . وعلى كل مجتمع أن يقرر لنفسه مطالبه وحاجاته وبتبين مواطن ضعفه وعلى ضوئها ينشىء نظامه التعليمى والتربوى الخاص به ومجتمعنا العربى اليوم فى حاجة ماسة إلى تعليم

عملى على نطاق كبير . ولكننى أرى مع إقبال أن هدف الثقافة الجوهرى يجب أن يتعدى دائماً نطاقه المهنى المحض ويهدف أولا وبالذات إلى نشر روح الاستطلاع العقلى. وليس هذا بأرستقراطية فى التفكير أو المطلب ولكنه تطلع إلى بناء الناحية الروحية وتقوية الذوق العلمى فى أفرادنا وبالتالى فى مجتمعنا .

وإذا كانت المادة هى الجسم فالمعنويات هى الروح . وهذه هى حرية الشرق وتراث فلسفتنا الإسلامية المجردة عن الأوهام والبدع والزخرف . فمتى افتخر الشرق بما قدم إلى العالم من روحانيات أصيلة سامية ومتى تلاقى ذلك مع ما يسهم به الغرب فى تيار المدنية العام من روح النظام والبحث عندئذ تأمل أن تتحقق المدنية الصحيحة على أيدى هذا الجيل الفتى الذى حملناه كل آمالنا ليسير بها قدماً إلى أسمى ما يرام ؟

مطابع دار القلم